كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بدمياط الجديدة
المجلة العلمية
العدد (١١) ديسمبر ٢٠٢٢م

اتجاهات الدراسات

في

إعجاز القرآن الكريم

الدكتورة

فوزيه يحيى سعيد عسيري

قسم اللغة العربية

كلية العلوم الإنسانية

جامعة الملك خالد

الملخص باللغة العربية والإنـجليزية

ويستهدف البحث دراسة جهود العلماء القدماء والمعاصرين في قضية الإعجاز والنظم.

وقد آثرت أن تكون دراستي في البحث عن سر إعجاز القرآن الكريم وتتبع جهود العلماء في تفسير سر إعجازه، ومعرفة تأثير القرآن الكريم على نشأة البلاغة.

ويقوم البحث على مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع.

اشتملت المقدمة على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، ومنهج البحث وخطته.

وتناول التمهيد فيه تعريف الإعجاز، وأبرز وجوه الإعجاز، وجهود القدماء في دراسته.

وتحدث المبحث الأول عن الدراسات البلاغية في ضوء مفهوم النظم قبل عبدالقاهر الجرجاني.

وتناول المبحث الثاني النظم عند عبدالقاهر الجرجاني.

وتحدث المبحث الثالث عن النظم بعد عبدالقاهر الجرجاني.

وختم البحث بخاتمة رصدت فيها أهم النتائج ومنها: أن الإعجاز القرآني هو الموجه للدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية في تراثنا العربي على امتداد عصوره الزاهرة.

كما توصلت الدراسة إلى أن دراسات المعاصرين تعد امتدادا لجهود القدماء في التعليل والتوجيه، مع محاولة تحقيق الإضافة من حيث المنهج والتوجيه، ومع الإقرار بقصب السبق للسلف.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، مفهوم النظم، وجوه الإعجاز، جهود العلماء، البلاغة.

Abstract

The present research aims to study the efforts of ancient and contemporary scholars in the issue of miracles and composition.

I preferred that my study be in the search for the secret of the inimitability of the Holy Qur'an and to follow the efforts of scholars in explaining the secret of its inimitability, and to identify the impact of the Holy Qur'an on the emergence of rhetoric.

The research consists of an introduction and preface, three topics, and a conclusion, and is proven by bibliography.

The introduction included the importance of the topic, reasons for choosing it, research objectives, research methodology and proposal.

The preface investigated the definition of the inimitability (I'jaz), the most prominent aspects of the inimitability, and the efforts of the ancients in studying it.

The first topic discussed rhetorical studies in the light of the concept of composition before Abdul Qaher Al-Jurjani.

The second topic discussed the composition from the viewpoint of Abdul Qaher Al-Jurjani.

The third topic discussed the composition after Abdul Qaher Al-Jurjani.

The research concluded with a conclusion in which the most important conclusions were noted, including: The inimitability (I'jaz) of the Holy Quran is the guide for literary, critical and rhetorical studies in our Arab heritage throughout its prosperous eras.

The study also concluded that the studies of the contemporary scholars are an extension of the efforts of the ancient ones in reasoning and guidance, with an attempt to achieve the addition in terms of methodology and guidance, and with acknowledgment of the precedence of the predecessors.

Keywords: The inimitability, Systems concept, Miraculous faces, Efforts of scholars, Rhetoric.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونشكره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا. وبعد فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي إمام الأنبياء محمد ﷺ، وإن من أشرف ما يقدمه الباحثون في بحوثهم، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون في تأليفهم ما كان في خدمة كتاب الله، والقرآن الكريم هو معجزة الله لنبيه محمد ﷺ وحوى من بديع البيان والفصاحة العربية ما عجز عنه العرب أنفسهم فصحاؤهم وبلغاؤهم وشعراؤهم، بل تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا ولو بآية من مثله، ولكنهم عجزوا، فالقرآن الكريم معجز ببيانه، لأنه كلام الله الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨ . ولما كان إعجاز القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته وبيانه لم يكن ممكنا فهمه ولا الوصول إلى دقائق معانية إلا بالتمكن من وعائه وهو اللغة العربية وعلومها نحوا وصرفا وبلاغة، ودلالة. فالقرآن الكريم بحر زاخر باللؤلؤ والدرر والمرجان مهما قراه القارئ وأعاده فسيظفر في كل مرة منه بعجائب من عجائبه التي لا تنقضي فقد تحدى قوما ملكوا ناصية الفصاحة، وفنون الكلام أن يأتوا بسورة من مثله، فآبوا بالخيبة والخسران بهرتهم سلاسة ألفاظه، وإحكام أساليبه، واتساق إيجازه وإطنابه، وما فيه من حجة وبرهان حتى قال قائلهم: "والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة – قال ابن هشام: ويقال لغدق ...."

فموضوع هذا البحث (اتجاهات الدراسات في إعجاز القرآن الكريم)، وسوف أتتبع جهود القدامى والمعاصرين في قضية الإعجاز والنظم وتكمن أهمية الموضوع في جانبين الأول: البحث عن سر إعجاز القرآن الكريم وتتبع جهود العلماء في تفسير سر إعجازه .الثاني: تأثير القرآن الكريم على نشأة البلاغة، فقد عكف العلماء على دراسة القرآن والبحث في سر إعجازه، فقالوا: إن أحق العلوم بالتعلم هو علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، والإنسان إذا أغفل علم البلاغة واخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع .وسوف تكون الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، تحدثت في التمهيد عن مفهوم الإعجاز ووجوه، وفي المبحث الأول عن النظم قبل عبدالقاهر الجرجاني، وفي المبحث الثاني تحدثت عن النظم عند عبدالقاهر الجرجاني، وفي الثالث عن النظم بعد عبدالقاهر، وختمت البحث بخاتمة سجلت فيها بعض النتائج التي انتهيت منها.

وأسال الله العلي العظيم، أن يجنبني الزلل.

التمهيد

مفهوم الإعجاز:

من نعم الله تبارك وتعالى أنه يخلق الناس ويدع شؤونهم، إنما تكفل لهم سبحانه بما يصلح شؤونهم، ويكفل لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم، لذا كان من رحمة الله وحكمته أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين يدعون الناس إلى الإيمان بالله الواحد ويبينون لهم ما يصلحهم، ويبعدونهم عما فيه الشر والأذى.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[1]

واقتضت حكمته تعالى – أن تأتي معجزة كل رسول من جنس ما اشتهر به قومه وبرعوا فيه، فنصر نوحاً عليه السلام بالطوفان وكان قومه أهل زراعة، وأيد إبراهيم عليه السلام بالنار فكانت برداً وسلاماً، وأيد موسى وعيسى عليهما السلام بآيات بينات، وأيد محمد عليه الصلاة والسلام، بالقرآن الكريم المعجزة البيانية الخالدة الباقية.

وهذا القرآن يتناسب مع مستوى العرب في تراكيبهم وأقوالهم، وهناك أمثلة كثيرة على هذا، فقد لفتت بلاغة القرآن أنظار العرب إليه، فأدركوا أنه معجز وعثرت عنهم أقوال هي بمثابة اعترافات منهم على إعجازه كقول الوليد بن المغيرة (والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمخدق، وإنه يعلو ولا يعلى ...)[2]

(١) سورة النساء: ١٦٥

(٢) البلاغة تطور وتاريخ: ٩، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط٨

ودعا القرآن الكريم المعرضين عن الإيمان بالقرآن الكريم إلى الإتيان بمثل هذا القرآن في بيانه وبلاغته ونظمه، ولو نظرنا إلى آيات التحدي لوجدنا أنها تتدرج في تحديها القوم المعرضين كما في قوله تعالى ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[١]، وهذا تحدي بالقرآن الكريم كاملاً أن يأتوا بمثله. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[٢]، أي إذا عجزتم عن الإتيان بحديث مثله، فآتوا بعشر سور مثله على غير الحقائق التي ضمها.

ثم تحداهم بسورة تشبه ما جاء في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[٣].

فلما عجز العرب عن التحدي، ذكر معهم الجن لدلالة على التعجيز كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٤]

كل آيات التحدي هذه تقرر عجزا لعرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم في بلاغته وحكمته، ونظمه ..

(١) سورة الطور: ٣٤
(٢) سورة هود: ١٣
(٣) سورة البقرة: ٢٣
(٤) سورة الإسراء: ٨٨

الإعجاز لغة واصطلاحاً:

والإعجاز لغة: ما جاء في لسان العرب: (والعجز نقيض الحزم، والعجز والضعف ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان أي فاتني، وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.. ويقال عجز يعجز عن الأمر إذا قصر عنه. وعجز الرجل وعاجز: ذهب فلم يوصل إليه، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾[١] قال الزجاج: معناه ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون وأنه لا جنة ولا نار وقيل معناه معاندين.[٢]

واصطلاحاً هو: (أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق)[٣].

ومن أبرز تعريفات إعجاز القرآن الكريم قول القاضي عبدالجبار ت (٤١٥)هـ (ومعنى قولنا في القرآن أنه معجز: أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به).[٤]

---

(١) سورة الحج: ٥١

(٢) لسان العرب: مادة عجز، ٣٦٩/٥، لجمال الدين محمد بن منظور، ط وانظر مباحث في إعجاز القرآن: ١٨/١

(٣) التعريفات، ٣١٠، للشريف علي محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/ ٢، ١٤٣هـ

(٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل: ٢٢٦/١٦، للقاضي عبدالجبار، تحقيق: أمين الخولي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط١

ويذكر الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) في إعجاز القرآن الكريم "إنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته. ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه".[١]

والخلاصة أن الإعجاز عند العلماء قصور الطاقة البشرية عن معارضة القرآن الكريم. فإن المعجزة هي "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة".[٢]

ومن هذا يتضح عجز الناس عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وثبت عجز الناس.

أبرز وجوه الإعجاز:

اجتهد العلماء في البحث في إعجاز القرآن الكريم، واختلفوا في وجوه الإعجاز ومن أبرز وجوه الإعجاز: الإعجاز الغيبي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، والإعجاز البلاغي.

والذي يعنينا في بحثنا هو الإعجاز البلاغي ومن أقدم الكتب التي ألفت عن القرآن الكريم تلك التي كانت تتحدث عن معاني القرآن، ومن أوائل الكتب معاني القرآن للفراء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، وهذين الكتابين كتبا في القرن الثاني للهجرة، وفي هذين الكتابين نجد البذور الأولى التي تحدثت عن أسلوب القرآن ونظمه، وبخاصة مجاز القرآن، فهناك حديث عن التشبيه، والكتابة والإشارة.

وجاء القرن الثالث فوجدنا فيه ظهور هذه الكلمة أعنى لفظه الإعجاز. وكثيراً من الإشارات، وكانت هذه الإشارات عند النظام المعتزلي، وتلميذه الجاحظ، وهما

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٣٩، لمصطفى صادق الرافعي، ط ٨

(٢) الاتقان في علوم القرآن: ١٤٨/٢، لجلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي، القاهرة

إمامان من أعظم وأشهر أئمة المعتزلة، كما وجدناها عند إمام من أئمة أهل السنة وهو ابن قتيبة.

وقد تحدث بعض أعلام البلاغة عن مفهوم الإعجاز القرآني ووجهه البلاغي ولعل الرماني المعتزلي (ت ٣٨٦هـ) يعد من أشهر البلاغيين الذين كتبوا في الإعجاز القرآني في القرن الرابع الهجري، حيث ألف رسالة وسماها (النكت في إعجاز القرآن)، وتظهر وجوه إعجاز القرآن عند الرماني في سبع وجوه ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة.(١)

وقد قسم البلاغة ثلاث طبقات عليا، ووسطى، ودنيا والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة.(٢)

وقسم الرماني البلاغة القرآنية عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين والمبالغة، وحسن البيان.(٣)

أما رأي الرَّماني في الإعجاز، فيعتمد على أن القرآن معجز بنظمه وبيانه، وذلك لأنه خرق للعادة في هذه الناحية، وأن أقصر سورة منه معجزة كأطول سورة فيه.

ويأتي الخطابي (ت ٣٨٨هـ) وهو من أئمة أهل السنة، وكان معاصراً للرماني المعتزلي، فينتقل بالإعجاز إلى طور جديد، حيث عمق مفهوم النظم القرآني، واجتهد في

(١) أنظر النكت في إعجاز القرآن: ٧٥
(٢) أنظر النكت في إعجاز القرآن: ٧٥
(٣) أنظر النكت في إعجاز القرآن: ١١٠

توضيح وجوه الإعجاز البلاغي وذلك في رسالته (بيان إعجاز القرآن). وناقش الخطابي في رسالته الوجوه غير المقبولة في الإعجاز كالصرفة الذي قال به المعتزلة، ومنهم الرماني، كما رفض اعتبار الإخبار بالغيب في القرآن من وجوه الإعجاز، ورأى أن أوجه الإعجاز المقبول عنده هو الإعجاز البياني وعناصر الإعجاز عنده فثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما، وفي ذلك يقول محدداً إعجاز القرآن القائم على اللفظ والمعنى والنظم: "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.."[١] ويختم الخطابي كلامه عن الإعجاز بقوله: فتفهم الآن وأعلم: إن القرآن إنما صار معجزاً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني.[٢]

وأشار في نهاية رسالته إلى وجه آخر من وجوه الإعجاز لم يسبق به بل غفل عنه الناس، وهذا الوجه يتصل بالعامل النفسي والوجداني وهو إعجاز القرآن بتأثيره في النفوس والقلوب.

أما البلاقاني (ت ٤٠٣هـ) فألف كتابه (إعجاز القرآن)، الذي يوضح فيه موقفه من بيان القرآن الكريم ونظمه، ويظهر إعجاز القرآن عنده في عدة وجوه، وقد أجملها في ثلاثة: الإخبار عن الغيب، والإنباء عن قصص السابقين والأمم الماضية، والبراعة في نظمه وأسلوبه وبلاغته وبيانه.

(١) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٦، ٢٧
(٢) المصدر نفسه: ٢٦، ٢٧

ويرى عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه وتأليفه.

ويوضح الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) أن إعجاز القرآن الكريم يظهر من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيب، وجعل جهة إعجازه من ناحية نظمه هي الأساس. واعتمد الزمخشري في كشافه على المنهج اللغوي في الكشف عن المعنى المراد، ورعى جانب المعنى، واعتبار الدلالة العقلية والروابط المعنوية. فالزمخشري أكمل البناء الذي أرسى دعائمه عبدالقاهر وسار على نهجه.

ثم تتابع في موضوع الإعجاز القرآني، وبرز في هذا المجال علماء منهم: الغزالي، والقاضي عياض، وابن رشد، والرازي، والسكاكي، وابن كثير، والسيوطي وغيرهم كثير.

المبحث الأول

الدراسات البلاغية في ضوء مفهوم النظم قبل عبدالقاهر الجرجاني

مفهوم النظم عند البلاغيين:

وردت مادة "نظم" ومشتقاتها في معاجم اللغة بمعنى التأليف والجمع والاتساق. جاء في لسان العرب: (النظم: التأليف – نظمه ينظمه نظماً ونظاماً، ونظّمه فانتظم وتنظم. ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله. ومنه نظمت الشعر ونظمته.. وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته. والنظم: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما وأحدته نظمه. والنظم نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد. وكذلك هو في كل شيء حتى يقال: ليس لأمره نظم أي لا تستقيم طريقته. والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام وجمعه نُظُم. والنظام: العقد من الجوهر والخرز ونحوهما وسلكه خيطه .. والانتظام الاتساق).[١]

وفي الاصطلاح: (تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني، متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل).[٢]

---

(١) لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، مادة "نظم"، دار صادر، بيروت، ط/٦، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م، وأنظر في المادة نفسها: أساس البلاغة: جار الله محمد بن عمر الزمخشري، تح: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت (بلا تاريخ)، والقاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، بولاق، القاهرة، ط/٣، ١٣٠٢هـ، والمعجم الوسيط: إخراج: د. إبراهيم أنيس وزملائه، ط/٢، دار الفكر (بلا تاريخ). وفيه ((... ويقال: نظم القرآن: عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة)).

(٢) التعريفات: الشريف علي بن محمد الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، ٣١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٢، ١٤١٣ = ١٩٩٢م.

وقد مر مصطلح النظم بمراحل قبل أن يتحدد مفهومه على النحو الذي يبدو في هذا التعريف الاصطلاحي.

فقد ظهرت فكرة النظم القرآني منذ القرن الثالث الهجري عندما بدأ البحث في إعجاز القرآن إثر تعرض فكرة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم لبعض المطاعن[١] نتيجة لعوامل متعددة هيَّأت الجو أمام المشككين منها (سيطرة العناصر الشعوبية، وإمساكها بزمام السلطة، ورواج الثقافات الأجنبية الوافدة، وقيام الفرق الكلامية الإسلامية على أساس الخصومة والمنافرة فيما بينها)[٢] حينئذ (مست الحاجة إلى بسط القول في فنون من فصاحة (القرآن) ونظمه ووجه تأليف الكلام فيه)[٣]. فعد العلماء والأدباء نظم القرآن وجهاً من وجوه إعجازه.

ومن أوائل القائلين بالإعجاز بالنظم أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فقد رد رأي أستاذه إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٢٨هـ) الذي أنكر إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، وعلله بالصرفة فقرر أن (الآية والأعجوبة في القرآن في نظمه وتأليفه، وعلله بالصرفة فقرر أن (الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز – كما يقول – أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم)[٤]. وألف الجاحظ كتابه المشهور المفقود "نظم القرآن"

(١) أنظر: تأويل مشكل القرآن: عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تح: السيد أحمد صقر، ٢٤ وما بعدها، دار التراث، القاهرة، ط/ ٢، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

(٢) أنظر: الإعجاز النظمي للقرآن: د. عبدالحميد العبيسي، ١٣/١، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط/١، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م

(٣) تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، ١٥١/٢، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧م

(٤) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ٢٩٦/١، مكتبة النهضة المصرية، ط/٢، ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩م.

والذي أشار إليه في بعض مؤلفاته الأخرى كقوله في الحيوان مفنداً موقف خصمه: (كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه ..)[١].

ومن رأيه في الإعجاز بالنظم قوله: (في كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد)[٢]، وكلمة النظم عند الجاحظ تأتي مرادفة للتأليف، وتأتي في بعض المقامات بمعنى البيان والإنشاء.[٣]

ويتفق ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) مع الجاحظ في رأيه في إعجاز القرآن بالنظم. فيقول في صدر كتابه "تأويل مشكل القرآن" الذي رد فيه على الطاعنين في القرآن والمشككين في أمر إعجازه بالنظم: (الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد. وهدانا بنور الكتاب .. وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين. وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين ...)[٤] وأشار إلى أسرار النظم القرآني وعناصره، ممثلة في الجمال الصوتي الإيقاعي والمعاني الأصلية الخالدة والمعاني البلاغية، وبذلك استطاع أن يفتح الطريق لمن أتى بعده من البلاغيين أن يتحدثوا بثراء عن عناصر الكلام.[٥]

ويشهد مفهوم النظم في القرنين: الرابع والخامس الهجريين تطوراً بجهود بعض العلماء والأدباء كالخطابي والقاضي عبدالجبار وعبد القاهر الجرجاني. أما الخطابي (ت ٣٨٨هـ) فقد ألف رسالة في "بيان إعجاز القرآن" أرجع فيها إعجاز القرآن إلى بلاغته، وشرع في

---

(١) الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، ٩/١، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/٢، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٥م

(٢) المصدر نفسه: ١٣١/٣

(٣) أنظر: نظرية عبدالقاهر في النظم: د. درويش الجندي، ٢٣، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٠م

(٤) تأويل مشكل القرآن: ٣

(٥) أنظر: المصدر نفسه، ٣ وما بعدها، ومن بلاغة النظم العربي: د. عبدالعزيز عرفة، ١٤، ١٥، عالم الكتب، بيروت، ط/٢، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٤م. وأنظر: الإعجاز النظمي: ١٨.

بيانها، وانتهى إلى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه. ومن حديثه عن النظم وعناصره قوله: (إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه... وأعلم أن القرآن إنما صار معجزاً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني ...).[١]

فالخطابي يحصر عناصر الإعجاز – متأثراً بابن قتيبة – في الألفاظ والمعاني ونظوم تأليف العبارة، ويقف عند هذه العناصر، ويوضح مراده بالنظم فيقول: أنه (عبارة عن ارتباط الكلمات بعضها ببعض والتئامها، وأن هذا الارتباط وذلك الالتئام يحدث صورة في النفس يتشكل بها البيان).[٢]

وأما القاضي عبدالجبار (ت ٤١٥هـ) فقد خصص الجزء السادس عشر من كتابه "المغني" للحديث عن إعجاز القرآن، عقد فيه فصلاً لبيان الفصاحة التي فيها يفضل بعض الكلام على بعض. عرض فيه رأي شيخه أبي هاشم الجبائي (ت ٣٢١هـ) الذي نفى أن يكون النظم بمعناه العام وهو اختلاف الطريقة أو مطلق الأسلوب وجهاً من وجوه الإعجاز ومفسراً لفصاحة الكلام، لأن الإعجاز في رأيه يرجع إلى جزالة اللفظ وحسن المعنى اللذين تتحقق بهما الفصاحة. (وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم

(١) بيان إعجاز القرآن: حمد بن محمد الخطابي – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام: ٢٤، دار المعارف، مصر ١٩٦٨م.

(٢) المصدر نسه: ١٤

مخصوص، لأن للخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف، وإذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً وتقع المزية في الفصاحة...).[١]

ويتابع القاضي شيوخه فيعلل إعجاز القرآن باختصاصه برتبة في الفصاحة خارجة عن العادة.[٢] ويحس القاضي نقصاً في مفهوم شيخه أبي هاشم للفصاحة، (لأنه لم يلاحظ صورة تركيب الكلام، وهي أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها).[٣] فعقد فصلاً آخر أوضح فيه المزية في الفصاحة أو العلة التي بها يتفاضل الكلام في فصاحته، فنفى علاقتها بالألفاظ من حيث ذواتها وبالمعاني وإن كان لابد منها، وربطها بالنظم ومما قال: (أعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع.... فالذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال (الاختيار) الذي به تختص الكلمات، أو التقدم والتأخر الذي يختص الموقع، أو الحركات التي تختص الإعراب فبذلك تقع المباينة ...).[٤]

والقاضي عبدالجبار يريد بضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة توخي معاني النحو فيما بين الكلم كما يقول عبدالقاهر في تعريفه للنظم كما سيأتي، يؤيد هذا شرح عبدالقاهر لعبارة القاضي عبدالجبار في سياق تفسيره

(١) المغني في أبوب التوحيد والعدل: ١٩٧/١٦ القاضي عبدالجبار، تح: أمين الخولي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط/١، ١٣٨٠هـ= ١٩٦٠م، وأنظر: البلاغة القرآنية في كشاف الزمخشري: ١٢٦

(٢) أنظر: المصدر نفسه: ٣١١/١٦، ٣١٨

(٣) البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف، ١١٦، دار المعارف، مصر، ط/٥

(٤) المغني: ١٩٩/١٦، ٢٠٠

للنظم في كتابه "دلائل الإعجاز"[١] وتأسيساً على ذلك فمفهوم النظم عند عبدالجبار المستفاد من حديثه عن الفصاحة يقترب اقتراباً شديداً من معناه البلاغي الخاص عند صاحب الدلائل كما سيأتي، فهو لا يريد بنظم القرآن (مجرد طريقة مبتدعة في صياغة الكلام تباين ما عرف العرب من منظوم ومنثور، وإنما انفرد معها برتبة في الفصاحة معجزة ...).[٢] ويعد (كلامه – كما يقول الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى – مرحلة ثانية في تطور النظم بمفهومه عند عبدالقاهر)[٣]، ويرى بعض مؤرخي البلاغة العربية أنه بذلك وضع أصول نظرية النظم بمعناها العلمي الدقيق.[٤]

ويعد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أبرز من شرح فكرة النظم مستفيداً من جهود السابقين، فخصص لها كتابه المشهور "دلائل الإعجاز" سعى فيه إلى أن بلاغة الكلام تكون في النظم، وأن إعجاز القرآن يرجع إلى خصائص في أسلوبه أو نظمه. وللنظم في نظره معنيان: لغوي وبلاغي.

فاللغوي هو (ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق) ويسميه بالنظم في الحروف، وهو توالبها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ...)[٥]

(١) أنظر: دلائل الإعجاز: عبدالقاهر الجرجاني، ٣٠١، ٢ – ٣، تصحيح وتعليق محمد عبده ومحمد رشيد رضا، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م، وأنظر: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار: د. عبدالفتاح لاشين، ٢١٩ وما بعدها، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م

(٢) الإعجاز البياني للقرآن: د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، ١١٠/١، دار المعارف، القاهرة، ط/٢، ١٩٨٧، وأنظر: المغني: ٣٢١/١٦

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ١٢٧

(٤) أنظر: البلاغة تطور وتاريخ: ١١٨، ومن بلاغة النظم العربي: ٢٠

(٥) دلائل الإعجاز: ٤٠

والبلاغي ويسميه نظم الكلم، وحقيقته (أنك تقتفي في نظمها "الكلم" آثار المعاني على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء كيف جاء واتفق (ويعني) التناسق في الدلالة والتلاقي في المعاني على الوجه الذي اقتضاه العقل).[١]

ويبين أن المعاني التي يتعلق بها الفكر ويرتبها في النفس إنما هي معاني النحو وليست معاني الكلمات في ذاتها. يقول (أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم لا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد منه حكماً سوى ذلك من الأحكام .. وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فأعمد إلى أي كلام شئت، وأزل أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها. فقل في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل: من نبك قفا حبيب ذكرى منزل، ثم أنظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها ؟ ..).[٢]

فالنظم عنده هو (توخي معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام).[٣]

ويريد بمعاني النحو الخصوصيات التي هي مقتضى الحال كالتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف وغيرها، والأغراض في التعريف هي الأحوال الداعية إليها أو

(١) المصدر نفسه: ٤٠، ٤١
(٢) المصدر السابق: ٣١٤
(٣) المصادر السابق: ٦٩، ٢٨٢

المعاني الثانوية التي يقصد من الخصوصيات إفادتها.[١] وبذلك استطاع عبدالقاهر (أن يفسر النظم تفسيراً رده فيه إلى المعاني الإضافية التي تلتمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النفس، وهي معان ترجع إلى الإسناد وخصائص مختلفة في المسند إليه والمسند وفي أضرب الخبر وفي متعلقات الفعل من مفعولات وأحوال، وفي الفصل بين الجمل والوصل وفي القصر وفي الإيجاز والأطناب).[٢]

وهذه الموضوعات هي التي ألف منها من جاء بعده من علماء البلاغة المتأخرين أبواب علم المعاني: يقول الخطيب الغزويني (ت ٧٣٩ هـ) (وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه الشيخ عبدالقاهر بالنظم).[٣] ويتوسع عبدالقاهر في مفهوم النظم فيدخل فيه الصور البيانية فهي جزء في النظم وليست سر جماله وإعجازه، فذهب إلى أن (الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم، وعنها يحدث، وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شي منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينهما حكم من أحكام النحو.. فلا يتصور فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره ..).[٤] ويعقد في كتابه "دلائل الإعجاز" فصلا (في النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع) عد منه بعض أنواع البديع كالمزاوجة والتقسيم، وذكر أن (ما شأنه أن يجئ على هذا الوصف {ليس له) حد يحصره ولا قانون يحيط به).[٥] وتبعه في هذا فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية

(١) أنظر: بغية الإيضاح لتخليص المفتاح: عبدالمتعال الصعيدي، ١٢/١، ١٧ مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، ط/ ٦ (بلا تاريخ)

(٢) البلاغة تطور وتاريخ: ١٨٩

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، تح: د. محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط / ٥، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م

(٤) دلائل الإعجاز: ٢٩٩ – ٣٠١، وأنظر: البلاغة تطور وتاريخ: ١٦٣، ١٦٨

(٥) أنظر: دلائل الإعجاز: ٧٣، ٧٤

الإعجاز" فعد من القسم الثاني من النظم ثلاثة وعشرين وجها جلها من أنواع البديع المعنوية منها المطابقة والمقابلة.[١]

وهذا الفهم العلمي للنظم عند عبدالقاهر الذي يؤكد الصلة الوثيقة بين التفكير والتعبير يلتقي ومفهوم الأسلوب عند ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذي يربط الصورة اللفظية بالصورة المعنوية أو الشكل بالمضمون، وعند بعض الباحثين المعاصرين من أمثال الأستاذ أحمد الشايب الذي يرى أن الأسلوب (معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان، وأنه طريقة التفكير والتصوير والتعبير).[٢] ومعنى ذلك أن النظم عند عبدالقاهر يعني الأسلوب، وقد استخدمه في موضع يتيم من كتابه "دلائل الإعجاز" فعرفه بقوله: (والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه ...).[٣] مؤثراً مصطلح النظم لشيوعه في الدراسات القرآنية. هذا ويستمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) فهمه للنظم من مفهومه عند عبدالقاهر (فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشري يعني بيان الروابط والعلاقات بين الجمل، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضا، وكيف يأخذ بعضه بحجزه بعض)[٤] وحاول الزمخشري تطبيق نظرية النظم عند عبدالقاهر في تفسيره الكشاف، وحاول ذلك غيره من المفسرين كالرازي وأبي السعود وغيرهما. ودخل مصطلح النظم بمعناه عند عبدالقاهر في كتب التعريفات والمصطلحات فقال الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ): (النظم في اللغة: جمع اللؤلؤ في

(١) أنظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر الدين الرازي، ٢٨٣ – ٢٩٧، تح: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط/١، ١٩٨٥م

(٢) الأسلوب: أحمد الشايب: ٤٠، ٤٥، مكتبة النهضة المصرية، ط/٦، ١٩٦٦، وأنظر: مقدمة ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون: ٥٠٥، دار التحرير، القاهرة، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٦١، وأنظر: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي: د. شفيع السيد، ٢٢، ٢٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٢٣٦

السلك. وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني .. على حسب ما يقتضيه العقل).(١)

(١) التعريفات: ٢٤٢

المبحث الثاني

النظم عند عبدالقاهر الجرجاني

لقد تألق منذ القرن الخامس الهجري عالم فذ وأديب بليغ، وفقيه شامخ، ومتكلم أشعري، هو الإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) صاحب نظرية فريدة في الإعجاز والبلاغة، عرفت في تاريخ البلاغة العربية باسم (نظرية النظم) وتناولها في كتابه (دلائل الإعجاز)، وهو ما يدل عليه عنوانه أنه يبحث في علاقات الإعجاز القرآني ودلائله، إذ أن الدافع الديني كان مسبباً مهماً وقوياً في فكرة النظم عنده، ولم تقتصر على النص القرآني وحده، بل اهتمت بالصياغة الأدبية بوجه عام وأصبح لها دور بارز في إرساء دعائم البلاغة العربية، واستقرارها وبلوغها ذروة النضج والازدهار.

ولم يعرف عالم قبله في تاريخ البلاغة العربية جعل النظم نظرية مرتبطة بأسمه، وصنع منها نظرية بلاغية ونقدية متكاملة.

ويرى عبدالقاهر أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه وتأليفه والنظم قد يتساوى مفهومه مع مفهوم كلمة الأسلوب حديثاً وفي إطار ذلك يتجلى واضحاً ما يقصده عبدالقاهر من تعريف النظم حيث يقول: "وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشي منها، وذلك إنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير ن ينظر في وجه كل باب وفروقه .. فيعرف لكل ذلك موضعه ويجئ به حيث ينبغي له.[١]

(١) أنظر دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث: ١٣٥، للدكتور أحمد درويش، ط١، ٢٠١٠م

ولم يقتصر بحث عبدالقاهر في نظرية النظم على رصد المعاني النحوية فحسب، وإنما امتد به البحث ليتناول دور المعاني النحوية وأثرها في التركيب والصياغة عن طريق اختيار المفردات والتأليف بينها، لما له من أهمية في إعطاء الصياغة صورة فنية وجمالية.

ونظراً لاهتمام عبدالقاهر بفكرة النظم لم يقصر حديثه عليه في دلائل الإعجاز بل امتد به إلى أسرار البلاغة أيضاً، حيث يقول: "والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعم دبها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب".(١) غير أن عبدالقاهر في دلائل الإعجاز "أفرغ جل اهتمامه على التركيب، وفي الأسرار وجه كل عنايته على البواعث النفسية وموقعها في الفؤاد.(٢)

وعرض عبدالقاهر نماذج تطبيقية لبعض النصوص القرآنية، وحاول تحليلها في ضوء فكرة النظم، كاشفاً سر الإحكام في بنائها، ومزية النظم فيها، ومن ذلك تحليله للتقديم الذي اقتضاه النظم، وكان تقديمه أولى من تأخيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٣).

فيبين عبدالقاهر أن التقديم في الآية أحدث في المعنى خصوصية لم تكن تتحقق بدونه يقول: (ليس بخافٍ أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة يعدمهما إذ أنت أخرت فقلت: وجعلوا الجن شركاء لله ...، وإن كان نرى جملة المعنى ومحصولة أنهم

(١) أنظر دراسات في البلاغة العربية: ٣٠، للدكتور عبدالعاطي غريب، ١٩٩٧م.

(٢) أنظر من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده: ٧٥ لمحمد خلف الله، ١٩٤٧م، القاهرة

(٣) سورة الأنعام: ١٠٠

جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن. وإذا أُخر فقيل: وجعلوا الجن شركاء لله لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى).[١]

كما جعل عبدالقاهر التمثيل والاستعارة والكناية، وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم.

وعلى الرغم من أن كتاب عبدالقاهر الجرجاني جاء بهدف الكشف عن الوجه المعجز في القرآن الكريم، فإنه لم يتعرض كثيراً للتطبيقات القرآنية التي يحقق من خلالها ربط النظم بالإعجاز، فقد قل الشاهد القرآني عنده قلة ظاهرة، مما دفع بعض النقاء إلى القول بأن عبدالقاهر نسى الغرض الذي ألف الكتاب من أجله أو انحرف عن الطريق المرسوم.[٢]

فقد انصب جُل اهتمامه بالشعر على امتداد الكتاب، ولعل السبب في ذلك يكون راجعاً إلى أنه اتخذ الشعر وسيلة إلى بيان أسباب البلاغة والفصاحة، وطريقاً إلى معرفة إعجاز القرآن[٣] والدليل على ذلك ما صرح به عبدالقاهر في أول دلائل الإعجاز فيقول: (كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت وبانت وبهرت، هي إن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان قوم إذا تجاور في الفصاحة والبيان،

(١) دلائل الإعجاز: ٢٢١ – ٢٢٢، لعبد القاهر الجرجاني

(٢) أنظر أثر النحاة في البحث البلاغي: ٣٥٩، للدكتور عبد القادر حسين، دار النهضة، مصر، القاهرة

(٣) أنظر البلاغة والنقد: ٣٢٦، لمحمد كريم الكواز، ط١، بيروت، ٢٠٠٦م

وتنازعوا فيها قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان البيان في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض – كان الصاد عن ذلك صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى.[١]

وخلاصة القول إن نظرية عبدالقاهر في النظم التي اتخذها وسيلة إلى إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن، اتسعت وتطورت لتصبح نظرية أساسية في فهم النص.

(١) دلائل الإعجاز: ٨ – ٩

المبحث الثالث

النظم بعد عبدالقاهر الجرجاني

امتاز النظم بعد عبدالقاهر بظهور علماء وباحثين كثيرين أقبلوا على البحث في وجوه الإعجاز القرآني، وأولوها اهتماماً كبيراً، وخطوا فيه خطوات واسعة ونافعة، وأضافوا إضافات جديدة، وتفوقوا على ما قدمه سلفهم الصالح، مما كان له أكبر الأثر في الكشف عن كثير من معاني القرآن، وبيان السر الإعجازي فيه.

ومن المؤلفات التي صدرت في هذا المجال على سبيل المثال: إعجاز القرآن للرافعي، والتصوير الفني وظلال القرآن، ومشاهد القيامة لسيد قطب، والنبأ العظيم لمحمد عبدالله دراز، والتفسير البياني للقرآن لعائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، ومن بلاغة القرآن، وإعجاز القرآن البياني وهما لأحمد أحمد بدوي ومعجزة القرآن لمحمد متولي الشعراوي، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبدالخالق عضيمه، وير ذلك من المؤلفات القيمة في هذا الموضوع. وسألقى الضوء على بعض منها.

فالرافعي في كتابه إعجاز القرآن يذكر أن الإعجاز عنده يكمن في بلاغة النظم في القرآن مع وجود وجوه أخرى للإعجاز، وأشار إلى أن الإعجاز في نظم القرآن يكمن في ثلاثة مظاهر: الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها، والجمل وكلماتها يقول: (والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به، فليس لنا يد في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعاً ... ونحن إنما نبحث في القرآن من جهة ما انفرد به في نفسه على وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره على أي وجه من الوجوه، وأنواع البلاغة مستفيضة في كل نظام

سوي، وكل تأليف مؤنق، وكل سبك جيد، وما كان من الكلام بليغاً، فإنه بها صار بليغاً، وإن كانت هي بعد في أكثر الكلام إلى تفاوت واختلاف ... ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن الكريم، وبين هذه الأنواع في كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاء طبيعياً بحيث يبني هو عليها، لأنها في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه، فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلا عن أن يفي به، وفضلاً عن أن يربى عليه، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع ... فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً ... فأنت الآن تعلم أن سر الإعجاز هو في النظم، وأن لهذا النظم ما بعده، وقد علمت أن جهات النظم الثلاث في الحروق، والكلمات، والجمل).[١]

ثم يتحدث عن إعجاز النظم الموسيقي في القرآن واعتماده على الحروف وأصواتها، وعلى الحركة الصرفية واللغوية، وفي ذلك يقول: (ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مُسواقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان .. فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتدت لها طريقان

(١) إعجاز القرآن: ١٦٨ – ١٦٩

في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركة بالخفة والروعة.[١]

ومن الأمثلة الدالة على إعجاز النظم الموسيقي في القرآن الكريم قوله تعالى: (وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها كقوله تعالى: {ليستخلفهم في الأرض) (النور: ٥٥)، فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات، إذ تنطق على أربعة مقاطع، وقوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ البقرة: ١٣٧، فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المدّ الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها.[٢]

وألف الدكتور محمد عبدالله درار كتابه (النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن) وهو من أهم المؤلفات التي تناولت إعجاز القرآن، وفيه يرى أن مظاهر الإعجاز القرآني ثلاثة: اللغوي، والعلمي، والتشريعي، وتحدث عن الإعجاز اللغوي فيقول فيه: (فإذا ما اقتربت بآذانك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فجاءتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما

(١) إعجاز القرآن: ١٨١
(٢) إعجاز القرآن: ١٨٣

بينها. هذا ينقر، وذلك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرا ...).[١]

أما كتاب التصوير الغني لسيد قطب فكان رائداً في فهم الإعجاز البياني من خلال نظريته التي أبرز فيها الجوانب الجمالية الفنية في أسلوب القرآن الكريم حيث يرى أن الإعجاز في بيان القرآن وأسلوبه، وتصويره الفني، فيقول عن مشاهد القيامة وما فيها من صور النعيم والعذاب ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ سورة القمر. فهذا مشهد من مشاهد الحشر، مختصر سريع، ولكنه شاخص متحرك، مكتمل السمات والحركات. هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة، كأنها جراد منتشر، ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصوير هذا المنظر العجيب وهذه الجموع تسرع في سعيها نحو الداعي، دون أن تعرف لم يدعها، فهو يدعوها إلى شيء نكر لا تدريه. (خشعا أبصارهم) وهذا يكمل الصورة، ويمنحها السمة الأخيرة. وفي التجمع والإسراع والخشوع يقول الكافرون هذا يوم عسر).[٢]

كما ذكر سيد قطب وجوه أخرى للإعجاز في (ظلال القرآن) منها الإعجاز في التعبير وأسلوب الأداء، وفي التشريع، وفي الموضوع.

كما ذكر الشعراوي تحليلات رائعة للبيان القرآني في كتابه (معجزة القرآن) ويرى أن الإعجاز القرآني يكون من حيث إخباره عن الغيب، ومطابقته لما توصل إليه العلم الحديث.

---

(١) النبأ العظيم: ١٠٤

(٢) التصوير الفني في القرآن: ٥٧، ٥٨

وللدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) دراسات قرآنية من أشهرها التفسير البياني للقرآن، تحدثت فيه عن وجوه إعجاز القرآن، خاصة الإعجاز البياني الذي فصلت الحديث فيه.

وللدكتور أحمد بدوي دراستان بيانيتان من أهم الدراسات في البيان القرآني وهما: (من بلاغة القرآن) و (من أعجاز القرآن البياني).

وهكذا تتابعت مؤلفات العلماء واجتهاداتهم في الكشف عن وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم الذي كان هو موضوع التحدي للعرب حين طلب منهم أن يأتوا بمثله، إذ يرجع الإعجاز البياني إلى النظم الذي هو أهم وجوه الإعجاز وأتمها، لأنه عام في القرآن الكريم كله، لا تخلو منه آية بعكس وجوه الإعجاز الأخرى.

الخاتمـــة

وبعد فلعل فيما ذكرت ما يكشف عن اتجاه الدراسات القرانية في إعجاز القرآن الكريم، ومنه يمكن أن أسجل النتائج الآتية:

١- الإعجاز البلاغي هو أبرز وجوه إعجاز القرآن وأظهرها، وهو الوجه الذي وقع به التحدي، وقد بذل العلماء والأدباء من المفسرين والبلاغيين جهود كبيرة في تفسيره والكشف عن وجهه فأرجعه جمهورهم إلى نظمه البديع وتأليفه العجيب، والنظم في الاصطلاح تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل وقد انتهى مصطلح النظم إلى هذه الدلالة بجهود كثير من البلاغيين أبرزهم عبدالقاهر الجرجاني.

٢- الإعجاز القرآني هو الموجه للدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية في تراثنا العربي على امتداد عصوره الزاهرة.

٣- تبوأت قضية الإعجاز القرآني مكان الصدارة في الدراسات البلاغية وانشغل العلماء بدراسة أساليبها وتعمق أسرارها

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي، القاهرة

٢. الإعجاز البياني للقرآن، د.عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء)، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

٣. الإعجاز النظمي للقرآن، د. عبدالحميد العبيسي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة . ط١، ١٤٠٠- ١٩٨٠.

٤. أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبدالقادر حسين، دار النهضة، القاهرة

٥. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التوفيقة، مصر.

٦. البلاغة تطزر وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١.

٧. البلاغة والنقد، محمد كريم الكواز، بيروت.

٨. بغية الإيضاح لتخليص المفتاح، عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٦

٩. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨.

١٠. بيان إعجاز القرآن، حمد محمد الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد

١١. خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر .

١٢. تأويل مشكل القرآن، عبدالله بن مسلم بن قتيبه، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة .

١٣. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧ م .

١٤. التعريفات، الشريف علي محمد الجرجاني، تحيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٣٠.

١٥. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨، ١٤٠٣_ ١٩٨٣.

١٦. دراسات في البلاغة العربية، د. عبدالعاطي غريب، ١٩٩٧ .

١٧. دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، د. أحمد درويش، ط١, ٢٠١٠م .

١٨. دروس في البلاغة وتطورها، جميل سعيد، بغداد .

١٩. دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق محمد عبده ومحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨ .

٢٠. لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، دار المعارف، القاهرة .

٢١. المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبدالجبار، تحقيق: أمين الخولي، مطبعة دار الكتاب، القاهرة

٢٢. من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله - القاهرة، ١٩٤٧ .

٢٣. من بلاغة النظم العربي، د. عبدالعزيز عرفه، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥_١٩٨٤.

٢٤. نظرية عبدالقاهر في النظم، د . درويش الجندي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٠.